مارسلين

أو

« مدام ديبور دفالمور »

١٧٨٦ — ١٨٥٩

للاستاذ خليل هنداوى

فى الحياة أزاهير تقضى أعمارها منثورة هنا وهنالك ، لايكاد يشعر انسان لها بوجود . متواضعة فى أرضها ، منعزلة عن الاعشاب الطويلة والازهار المنتصبة . تعطر الفضاء بانفاسها ، فهو أنم عليها من الصبح !

وهنالك شعراء يعيشون فى أجواء عواطفهم فى عزلة نائية عن الناس ؛ اذا ترنموا فانما يترنمون ليطربوا أنفسهم ؛ وان بكوا فانما يكون لتصيب أدمعهم زهرات أمانيهم ، كما تصيب الروضة قطرات الطل . هؤلاء لايعرفهم الناس لانهم ما شاؤا ان يعرفوهم ، فهم — وانفسهم تسكب الالحان — كالازاهير المنسية ، وقد ملأت الفضاء أريجاً .

ومن هؤلاء الشعراء صاحبة هذه الترجمة وهذا الشعر الوجدانى ، من شاءت ان تقضى حياتها هامسة بأنغام نفسها ، ليس بين قلبها وبين الوجود الا ترجمان الحس والعاطفة :

هذه هى مارسلين . . .

ولدت فى (دواى) فى بيت تسود جوه روح الفاقة ، ويغلب على قلوب اصحابه شيء من الايمان الذى يضحى بكل شيء الا بنفسه ، فيبعث هذا الايمان فى صدورهم من الراحة والطمأنينة والرضا مالا تبعثه مظاهر الثروة الضخمة . على ان « أمها » جربت ان تنقذ الأسرة من مرارة الفقر ، فركبت وابنتها الى « بوردو » حيث تنتظرها ثروة قريبة . فاتخذت مارسلين الصعود على المسرح مهنة ، ترضى بأجرها اليسير ، ولكن الحظ أبى الا أن يسود الصفحة الأخيرة ، لأن هذه الثروة الموهومة قد تدهور امرها قبل أن يدوكا قريبتها ، فأصابت أمها حمى صفراء أودت بحياتها . فآبت الابنة على الاثر ، وعوامل اليأس والخيبة تطغى عليها .

الحياة ! ! كيف تعمل على تأمين أسبابها ؟ فتذرعت « بالخياطة » مهنتها الأولى ، وامتزجت مع الممثلين والممثلات ، تقف عليهم صناعتها ، فجدد هذا الاختلاط رغبتها الباطنية فى العودة الى المسرح ، فعادت اليه ونالت كثيرا من مظاهر الاستحسان والتصفيق على مسرح الفنون فى « روان » ، ولكن ماهى تجديها هذه المظاهر ؟ وهى التى كتبت فى مذكراتها « ما أكثر ما تهمر على باقات المعجبين بى ؟ وأنا أكاد أموت جوعا دون ان أصارح أحدا بأمرى » .

ثم كملها أحد أصحابها . فألحقها بمسرح جديد ، لا يتجاوز أجرها فيه الثمانين (فرنكا) طيلة الشهر . وفى عام « ١٨١٧ » ، شاهدها عارفوها فى « بروكسل » متأبطة ذراع الممثل « فرانسوا بوسير » مرتبطين برابطة الزواج ، وماحل عام « ١٨٢٣ » ، حتى كفت مارسلين عن الحياة المسرحية ، وسعت وراء نفسها مستلهمة ماتوحيه اليها ، بعد ان تلمست شيئاً غير قليل من الظفر الشعرى فى ديوانها الاول « اغانى ومراثى » ، ولكن حياتها ظلت — برغم عوامل المدح الطافية عليها — طافحة بالكآبة ، وقد اصابها الدهر بابنتيها خلال حياتها ، ثم غزاها سرطان داخلى لم يمهلها كثيرا . ومارسلين على رغم هذه البواعث على اليأس والقنوط لبثت صامتة راضية باحكام القضاء ، لاتلوث ديوانها بشيء من الهجو لمعاصريها وأصدقائها ، وذلك مادعا « اناتول فرانس » الى القول عنها أنها حقاً امرأة قديسة .

اما مارسلين فقد كان وجهها المشرب بشيء من الصفرة جميلا جذابا ، ونفسها مشبوبة العواطف ، متعددة اللواعج ، وحيثما قلبت فى ديوانها تبد لك آثار هذه النفس المشتعلة التى تذوقت الحب ، ورضيت به مرهقا للروح ، ومنهكا للقوى . لأن الحب عندها هو ربيع الحياة .. وقد حار النقاد فى العاشق الذى ظلت مارسلين تلهج باسمه وبصفاته فى قصائدها حتى أدركها الموت ، وطبيعى ان يحر خلاف النقاد الى اعتبارنا هذا الاسم المتردد اسما شعرياً ترمز به صاحبته الى اسم حقيقى

اما موقف معاصريها من نقاد وأدباء فقد اعترف اكثرهم بما ينور فى صدر مارسلين من عاطفة متقدة يؤول اليها سر براعتها الشعرية . « ولسانت بوف » فصول درس بها فن الشاعرة . رفعت كثيراً من قدرها وبراعتها : اضف اليها فصولا ومقاطيع متعددة لكبار الأدباء يرفعون بها شهرتها : وهذا « شيرر » يقول « ان مجد مارسلين شيء لاجدال فيه لانه مجد كثير الاحساس » وهذا « اميل مونتيكو » يكتب فى « معرض العالمين » ان مكان الشعر العاطفى يقاس بمقياس العاطفة الشخصية ، فان مارسلين هى اكبر شعراء العاطفة على الاطلاق .

والشاعر « ملارمى » كانت تستخفه اسباب الطرب عند مايتلو على اصدقائه قصيدة مارسلين الخالدة « حياة اليمام وموته » وأى قلب — أوتى الحاسة الفنية — يسمعها لا يحس هذه اللهجة العاطفية التى تتغلغل